﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: 77]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

توبيخُ المنافقين من اليهودِ بعلمِ اللهِ تعالى بهم هو الأَنسبُ في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم

لـمَّا ذكرَ اللهُ تعالى في الآياتِ السَّابقةِ عِلْمَ اليهودِ بمضامينِ التَّوراةِ، وذَكَرَ نفاقَ اليهودِ معَ المؤمنينَ، ناسَبَ ذلكَ توبيخُهُمْ بأَنَّ علمَ اللهِ شاملٌ للسِّرّ والعلَن، فَكَيْفَ يَسوغُ لَهُم النِّفَاقُ أَو الكِتمانُ، والحالُ أَنَّ اللهَ يعلمُ جميعَ ما يُسِرُّونَ وما يُعلنونَ، فحالُ نِفاقِهم لا يُجامِعُ بحالِ علمهم بِأَنَّ اللهَ يعلمُ جميعَ ما يُسِرُّونَه وما يُعلنونَه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَعْلَمُونَ﴾: العِلْمُ مَعْرفةُ الشَّيءِ عَلى حَقيقتِهِ، وَعِلمُ النَّاسِ مُقَيَّدٌ بِمعرفةِ ذلك الشّيءِ، ومَنازِلُ العُلومِ مُتفاوتةٌ بِتفاوتِ أَربابِها، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]، وَأَمَّا عِلمُ اللهِ فَهو مُطلَقٌ، والعَالِمُ – الّذي هو وصفٌ للهِ تعالى – هو الّذي لا يَخفَى عليهِ شَيءٌ؛ وذلك لا يَصِحُّ إلّا في وصْفِهِ تَعَالى[2]. وضَميرُ الجَمَاعةِ في ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في الآيَة عائِدٌ إلى المُوَبَّخينَ، وَيحتملُ عودُه إلى المُوَبَّخينَ والمُنافقينَ معًا.

2) ﴿يُسِرُّونَ﴾: السِّرُّ هو إخفاءُ الشّيءِ أَو كِتمان مَا في النَّفْسِ، وَالجَمْعُ أَسرارٌ، وَيُستعملُ في الأَعيان والمَعاني، وَأَسْرَرْتُ إلى فلان حديثًا: أَفضيتُ إِليْهِ في خُفْيَةٍ، والسِّرُّ كلُّ ما نتكلّمُ بِهِ في خَفاءٍ، وهو ضدُّ العَلانيَة[3].

3) ﴿يُعْلِنُونَ﴾: العَلَنُ: أَعْلَنَ يدلُّ على إظهارِ الشَّيءِ وإشاعته بين النَّاسِ، وأَكثرُ مَا يُقالُ ذلك في المعاني دونَ الأَعيان، ويقالُ: عَلَنَ الأَمرُ وأَعلنَه، العلانيةُ ظهورُ الأَمْر[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/443.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات: (علم).
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (سرر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (علن).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إقـامـةُ الحجَّة عـلى المخاطبين مـــن جـنـسِ حجَّتِهم

تمثِّل الآية بيانًا قرآنيًّا ناصعًا في إقامة الحجّةِ على اليهود؛ وذلك بالبدءِ بالاستفهام التّوبيخيِّ لهم؛ لحملِهم على الإقرارِ بعلمِ اللّهِ تعالى، وشمولِ علمِهِ بسرائرِهم وعَلانيتِهم، بما دلَّ عليه السّباقُ والسّياقُ، فكيف يُحرِّفون الكتابَ ويكتمونَ صفاتِ النَّبيِّ مُحمَّد ﷺ المكتوبةَ عندهم في التَّوراةِ وينافقونَ! فَوَبَّخَهُم اللّه تعالى على عملِهم الذي يَدُلُّ على جَهلِهم بِصفاتِ اللّهِ، أو يكونُ المَعْنَى على التّعَجُّبِ من جُرأتِهم وصَنيعِهم، وَهُم يَعلمونَ أَنَّ اللّه يَعلمُ سرَّهم وَعَلانيَتَهم.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

معاني همزةِ الاستفهامِ سياقيًّا:

تنوَّعَتْ أقوالُ المُفسِّرينَ والبيانيينَ في تَجليةِ معنى الهمزة على ثلاثةِ أقوالٍ، وهي على النّحوِ الآتي:

تَـنـوّعُ معـاني همزةِ الاستفهامِ دليلٌ على ثراءِ الـمَعنَى ودِقّـةِ البَيان

أولًا: التَّوبيخُ والتَّقريعُ: ومعناه توبيخُ اللّهِ للمنافقينَ من اليهودِ، على صنيعِهم في كتمانِ الحقِّ، وتواصيهم بذلك الكتمانِ، خوفًا من إقامةِ المؤمنينَ الحجَّةَ عليهم، وَهُمْ بذلك يَقعونَ في الطامَّةِ الكبرى في إنكارِ أمرٍ معلومٍ مِنْ دينِهم بالضَّرورةِ، وهذا مذهبُ جمهورِ المُفسِّرينَ[1]، قال الرازي: "وَالأَقْرَبُ أَنَّ اليَهُودَ المُخَاطَبِينَ بِذَلِكَ كانوا عَالِمِينَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكَادُ يُقَالُ عَلَى طَرِيقِ الزَّجْرِ: أَوَلَا يَعْلَمُ كَيْتَ وَكَيْتَ إِلَّا وَهُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ الشَّيْءِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ زَاجِرًا لَهُ عَنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ"[2].

ثانيًا: التقريرُ: ومعناهُ حَملُ المخاطَبينَ على الإقرارِ بمَضمُونِ الآيةِ، والمعنى تقريرُ إنكارِ علمِ اليَهودِ بأَنَّ اللّه يعلمُ ما يُسِرُّونَ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/4، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/443، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/118.

(2) الرازي، التّفسير الكبير: 3/147.

ومايُعلنونَ؛ أي إنهُمْ مَا عَلِمُوا بِذَلِكَ، فَرَغَّبَهُمْ بِهَذَا القَوْلِ فِي أَنْ يَتَفَكَّرُوا فَيَعْرِفُوا أَنَّ لَهُمْ رَبًّا يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَعلانِيَتَهُم، وَأَنَّهُمْ لَا يَأْمَنُونَ حُلُولَ العِقَابِ بِسَبَبِ نِفَاقِهِمْ، وهَذَا الكَلَامُ زَجْرٌ لَهُمْ عَنِ النِّفَاقِ، وَعَنْ وَصِيَّةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِكِتْمَانِ دَلَائِلِ نُبُوَّةِ مُحمَّد [1]ﷺ، ويمكنُ أَنْ يكونَ التَّقريرُ على طريقةٍ أُخرى، بأَنْ يُقال: لـمّا كانوا يعلَمون أَنَّ اللهَ يعلمُ جميعَ ما يُسِرُّونَ وما يُعلنونَ، ومع هذا فقد كانوا يُظهرونَ الإيمانَ، ويُبطنونَ الكُفرَ، ويَكتمونَ ما ثبتَ في التَّوراةِ قبلَ تحريفِها من نعوتِ رسولِ اللهِ مُحمَّدٍ ﷺ، فكأنَّهم لا يَعلمونَ؛ لأَنَّهم لم يَعملوا بمُقتضى علمِهم، فالعلمُ بالشَّيءِ إنْ لم يُثمرْ فهو في مقامِ الجهلِ به.

ثالثًا: التَّحضيضُ: وإليهِ ذهبَ ابنُ عاشور واستظهرهُ بمعونةِ استعمالِ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ الدَّالِّ على تجدّد الأَمرِ واستمراره، والمعنى: هَلّا كانَ وُجُودُ أَسْرَارِ دِينِهِمْ فِي القرآنِ ممّا ذكره اللهُ من تحريفِهم الكتابَ وغيرَه مُوجِبًا لِعِلْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ، والمُرَادُ لَازِمُ ذَلِكَ؛ أَيْ هم يَعْلَمُونَ أَنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ من عندِ اللَّهِ، فَهَلَّا كان ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى صدق الرَّسُول[2].

اجتماعُ قيمةِ الحضِّ على الهدايةِ وتوبيخِ المُخاطبين ببلاغةٍ عاليةٍ

ومَنْ يُدقِّقِ النَّظرَ يَجدْ أَنَّ جميعَ هذهِ المعاني مقبولةٌ، ويَسعُها النَّصُّ القرآني، فمعنى التَّقريرِ والتَّحضيضِ حاضرٌ؛ حيث إنَّ الآيةَ تُقَرِّرُ المخاطَبينَ وتحضُّهم على معرفةِ مُقتضى علمِ اللهِ تعالى بما يُسِرُّونَه وما يُعلنونَه، وكذلك تُوبِّخُهم على تَجاهلِهم وتحايلِهم على هذا الأمرِ العظيم، الذي لا يصحُّ أَنْ يجهلَه كِتابيٌّ، ومقصودُ الجمعِ بين هذهِ المعاني توبيخُ مَنْ أَصرَّ وكابَرَ وتقريعُهُ، وحَضُّ لِمَن في قلبِه بقايا خيرٍ وتقريرٌ له، فاجتمعتْ في الآيةِ قيمتانِ عظيمتان، وهما: الحضُّ على الهداية والرجوعُ إلى الحقِّ، وتوبيخُ المكابرين، وهذا من الاتِّزانِ البلاغيِّ في تقريرِ القيمِ الذي لا مَزيدَ عليه.

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/147.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/572.

الرَّبْطُ بالوَاوِ علَى مَعْنَى تجدُّد الحَال:

في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: جَاءَت جملةُ: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ فعليةً معطوفةً -على تقدير الحَال- على سابقتِها الفعليّة كذلك لإفادةِ معنًى جديدٍ، هو أَنَّهُ كُلَّما تجدّد نفاقُهم فَعِلْمُ اللهِ مُحيطٌ بهم، فوبّخهم الله على فعلهم مع علمِهم أَنَّه يعلمُ مَا يُسِرُّونَ ومَا يُعلنونَ، فَدَلّتِ الأَفعالُ المُضارِعةُ في الآيةِ على الحالِ المُتجدِّدةِ في المُستقبلِ الممتدّ[1]، والغَرضُ هو توبيخُهُم والإنكارُ المُتجدّد عليهم لِكُلِّ فعلٍ قبيحٍ يَفعلونَهُ.

لا يَنْفَعُ المُنافقينَ إلَّا الرُّجوعُ إلى الإيمان، فَعلمُ اللهِ مُحيطٌ بهم وبأَفعالِهم مَهما كتمُوا حقائِقَ الإيمان أَو أَبطنُوا الكفرَ

بلاغةُ إيلادِ حَرْفِ الاستفهامِ حرفَ العطف:

الكلامُ في مثلِ قولِه تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ له طريقتانِ في التَّقديرِ:

قدْ يختلفُ التَّوجيهُ والمعنى واحدٌ لِيَدُلَّ على تقريرِ المعنى وتأْكيدِهِ

الطريقةُ الأولى: مذهبُ جمهورِ النُّحاةِ والمفسِّرينَ، هو أَنَّ أَصْلَ الكَلَامِ كان بتَقْدِيمِ حَرْفِ العَطْفِ على الهَمْزَةِ[2]، وتقديرُ الكلامِ: (ويفعلونَ هذهِ الأفعالَ القبيحةَ، أَلَا يعلمونَ أنّ اللهَ يعلمُ مايُسِرُّونَ ومايُعلِنونَ).

الطريقةُ الثَّانيةُ: عطفُ الجملة المذكورةِ على أخرى محذوفةٍ بعدَ همزةِ الاستفهامِ، وهذه طريقةُ الزَّمخشريِّ وأبي السّعودِ في تقديرِ الكلامِ[3]، ونكتتُه: تنبيهُ المخاطَبِ إلى عجيبِ أمرِهم، ويُقدَّرُ المحذوفُ منْ سياقِ الكلامِ، والتَّقديرُ: (أيَجهلون ولا يَعلمون أَنَّ اللهَ يعلمُ ما يُسِرُّونَ ومايُعلنونَ).

وإنَّما قُدِّمَ الاسْتِفْهامُ في مثلِ هذه التَّراكيبِ؛ لأنّه يأتي في مقامِ إقامةِ الحجَّةِ والاستدلالِ، سواء أَكانت الهمزةُ للإنكارِ والتوبيخِ

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/196.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/443، والسمين، الدر المصون: 1/444.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/443، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/118.

المقتضي الزجرَ عن الفعلِ، أمْ كانت للتَّقريرِ، أمْ كانت للتَّحضيضِ، ولا يحقِّقُ هذه المعانيَ البلاغيَّةَ إلّا الاسْتِفْهامُ المجازيُّ الذي يكونُ بالهمزةِ فحسب، فناسبَ تقديمُ همزةِ الاسْتِفْهامِ على حرفِ العطف (الواو) المفيدة للحاليَّة.

فائدةُ إيثارِ صيغةِ الأفعالِ المُضارعةِ في الآية:

كُلَّما تجدّد إسرارُهُم أو إعلانُهم، فعلمُ اللهِ مُحيطٌ بِهم وبِمَا يَفعلون

آثرت الآيةُ صيغةَ الفعلِ المضارعِ على الماضي؛ فلمْ يقلْ: (أمَا علموا)، فوَرَدَ الفعلُ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بصيغة المضارعِ لإفادَة تَجدّدِ الحدوثِ، على معنى: إنّهم يَعلمون أَنَّ كلَّ فعل يفعلونَه سِرًّا أو عَلَنًا فإنَّ اللّه يعلمُه، وإنَّ الأمرَ ماثلٌ أَمامَهم في كلِّ وقت.

اليَهودُ في حالةِ مُتجدّدةٍ مِنْ كتمانِ الحَقائق وإعلانها

ورد التّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ دونَ الماضي فلم يقلْ: ما أَسَرُّوا وما أَعلَنوا؛ بل قال: ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعْلِنُونَ﴾ بصيغة الفعل المضارع التي تدلّ على تجدّد الحدوث واستمراريته، وفي صيغةِ الفعلِ المضارعِ إشارةٌ إلى ما يقعُ في المستقبلِ؛ فاليهودُ في حالةٍ مستَمِرَّةٍ لا يتوقَّفونَ عنْ إسرارِ الحقائقِ وكتمانِها، وإعلانِ الأباطيلِ والكذبِ تحقيقًا لما يَزعمون أنّه يحفظُ بقاءَهم.

سرُّ تَكرارِ ﴿مَا﴾ في الآيةِ:

تعيينُ نَوْعَين مُتناقِضَيْن من الكَلامِ الصَّادرِ عن ذاتٍ واحدةٍ

كُرِّرت ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ للبيانِ والتَّفصيلِ، فإنَّ المقامَ مقامُ تفصيلٍ وإيضاح في أَنَّ اللّه يعلمُ كلَّ شيءٍ يُسِرُّونَه وكلَّ شيءٍ يُعلنونَه، وفي التَّكرارِ نُكتةٌ بلاغيةٌ أُخرى، وهي أَنَّ ما يُسِرُّونَه مناقضٌ لِما يُعلنونَه، فوبّخهم على الكلام الّذي يُسَرُّ، والكلام الّذي يُخالِفُهُ ويناقِضُهُ حينما يُعلن، فكرّرت ﴿مَا﴾ لإظهار نفاقِهم، فلمّا اختلفَ المتعلّقُ، استوجبَ تَكرارُ ﴿مَا﴾، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المجادلة: 7]؛ لأَنَّ السِّياقَ يدلُّ على اختلافِ المتعلَّق فكرَّرَ ﴿مَا﴾، ولو كانَ الذي يُسِرُّونَه هو عينَ الّذي يُعلنونَه لَقالَ: (أَنَّ اللّه يَعلَمُ ما يُسِرُّونَ

ويُعلنونَ)؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: 71] لأَنَّ متعلّقَ علم اللّهِ شيءٌ واحدٌ، باعتبارِ أَنَّ كلَّ ما في السماوات والأرض معلومٌ للّه سبحانَه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾ بصيغةِ الإشارةِ إلى المفرد.

فائدةُ حذفِ المفعولِ:

بيانُ إحاطةِ علمِ اللهِ بجميعِ الخفيَّاتِ والمُعلنات

حُذِفَ مفعولُ الفعلين ﴿يُسِرُّونَ﴾ و ﴿يُعْلِنُونَ﴾ لإفادة العموم؛ فعلمُ اللّه لا يقتصِرُ على مُعيّن ممّا يُسِرُّونَ ومما يُعلنونَ، بل يتناول كلّ ما يُسرُّونَ وما يُعلِنونَ، فدلَّ حذفُ الضَّميرِ العائدِ على الاسمِ الموصولِ على عمومِ ﴿مَا﴾ في الآية كما تقدّم، وهو مناسبٌ لسياقِ الآية الدَّالِّ على إحاطة علمِ اللّهِ بما يُسِرُّونَ وما يُعلنونَ، فقد توصّلَ بتقليلِ اللَّفظِ إلى تكثيرِ المَعنَى.

بلاغةُ تقديمِ الإسرارِ على الإعلانِ:

ما مِنْ عَلَنٍ إلَّا ويسبِقُهُ إسرارٌ في القَلبِ

بعضُ كلماتِ القرآنِ تقترنُ مع صاحبتِها ولِفْقِها وتُلازِمُها ولا تنفصلُ عنها في غالبِ الاستعمالِ، وقد قُدِّم ﴿يُسِرُّونَ﴾ على ﴿يُعْلِنُونَ﴾ في الآية لنُكَتٍ بلاغيةٍ منها[1]:

أولًا: مرتَبةُ السّرِّ مقدَّمةٌ على مرتبةِ العَلَنِ؛ إذ ما مِنْ عَلَنٍ إلَّا ويَسبِقُهُ إضمارٌ في القلب يتعلَّق به الإسرار غالبًا.

ثانيًا: إذا كان اللّه يعلمُ ما يُسِرُّونَ، فبطريقِ الأولى يعلمُ ما يُعلنونَ؛ فقدَّم علمَ الأخفى ليدلَّ على علمِ الأظهر.

ثالثًا: الإيذانُ بافتضاحِ اليَهودِ ووُقوعِ ما يَحْذَرونَه من أوَّلِ الأمرِ.

رابعًا: المبالغةُ في بيانِ شُمولِ علمِهِ المحيطِ لجميعِ المعلوماتِ، كأَنَّ علمَه بما يُسِرُّونَه أقدمُ منه بما يُعلنونَه مع كونِهما في الحقيقةِ على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/118-119.

السوية؛ فإنَّ علمَه تعالَى بمعلوماته ليسَ بطريقِ حصولِ صُورِها، بل وجودُ كلِّ شيءٍ في نفسِه يعلمُهُ اللّٰه تعالى.

بديعُ الطِّباق في الآية:

أفاد الطِّباقُ في ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعْلِنُونَ﴾ استواءَ الأمرين في علمِه ﷻ، كما أَنَّه أفادَ توكيدَ المعنى وتقريرَه.

العطفُ بقصدِ التَّأكيدِ:

اجتماعُ دلالة المطابقةِ والالتزامِ في الكلمةِ القرآنيّة

دَلَّتْ كلمةُ ﴿يُسِرُّونَ﴾ على معنى الإسرارِ بدلالة المطابقة، ودلالتُها على الإعلانِ بطريقِ الالتزام؛ فإنَّ اللّٰه إذا كان يعلمُ ما يُسِرُّونَ، فمِنْ بابِ أَوْلَى أَنْ يعلمَ ما يُعلنونَ، فلمَّا ذكرَ ﴿يُعْلِنُونَ﴾ دلَّ على علمِه بما يُعلنونَ مطابقةً، فكأَنَّه كرَّرَه مَرتَين؛ ولهذا قال ابن عرفة: "عطْف ﴿يُعْلِنُونَ﴾ على ﴿يُسِرُّونَ﴾ تأكيدٌ ليدلَّ اللَّفظ عليه بالمطابقةِ واللّزوم"[1].

تَوْجِيهُ المُتشَابِهِ اللَّفظيّ:

تقديمُ الإسْرَارِ عِندَ بَيانِ العِلْمِ، وتقديمُ الإعلانِ عند بَيَانِ المُحَاسَبَةِ

قُدِّمَ ذكرُ الإسرارِ على الإعلانِ، وقد جاءَ في آيةٍ أخرى تقديمُ الإظهارِ على الإخفاءِ؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 284]؛ ذلك أَنَّ المقامَ في الآيةِ الأخرى هو في بيانِ محاسبةِ اللّٰه لنا على أَعمالِنا، والأصلُ أنَّ المُحاسبةَ تكونُ في الأمورِ البادية دونَ الخافية[2]، فلمّا اختلف السِّياقُ قُدِّم في كلِّ آيةٍ ما يُناسِبُها.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

استعمَلَ القرآنُ في هذه الآية ﴿يُسِرُّونَ﴾، ولم يستعمل (يُخفون) أو (يَكتمون)، كما أَنَّه استعمل ﴿يُعْلِنُونَ﴾، ولم يستعمل (يُبدونَ)؛ لِخُصُوصيَّة الكَلِمَة في سياقِ الآيةِ، ويمكن معرفةُ هذا ببيان الفروقِ المُعْجَميَّة بين الكلماتِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/344.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/301.

الإسرارُ والخِفيةُ:

الفَرْقُ بين الإسرارِ والخُفيةِ من ثلاثةِ وجوه:

الخُفية أخفَى من السِّرّ، والله يعلم السرّ وأخفى، ومن الخَفِيّ ما هو مَخبوءٌ ولا يعلمه أحدٌ إلّا الله

إنَّ ما هو أَخفى من السِّرِّ يُسَمَّى خُفْيةً وخَفَاءً، قال تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: 25]؛ فالخبءُ هو المخبوءُ والمَخفيُّ الّذي لا يعلمُهُ إلا اللّه، ولهذا قالَ تعالى في نهايةِ الآية: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، ولم يقلْ: (يعلم ما تُسِرُّونَ وماتُعْلِنُونَ). وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: 5]؛ لأَنَّ الخفاءَ أَدقُّ مِنَ السِّرِّ، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7]؛ أي يعلمُ ما هو أَخفَى من السِّرّ.

الإسرارُ قد يكونُ في النَّفس، فلا يعلمُه أحدٌ، وقد يكونُ إلى الغَيرِ، وأما الخِفيَةُ فلا تكونُ إلى الغَيرِ

إنَّ السِّرَّ ما يصحُّ أَنْ يَقعَ فيه إسرارٌ إلى الغَيرِ، وأمَّا الخُفيةُ فهو ما خَطَرَ بالبالِ ممَّا لا يقعُ منه إسرارٌ ولايُتفَوَّهُ بِهِ[1]، فالإسرارُ قدْ يكونُ في النَّفْسِ: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ [يوسف: 78]، وقد يكونُ إلى الغير ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [التحريم: 3]، وأمَّا الخُفيةُ فلا تكونُ إلى الغَيرِ، بل تكونُ في النَّفسِ أو في الصَّدرِ، ولهذا جاءَ في الآيةِ: ﴿مَايُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ لأَنَّ اللّه أخبرَ عنهم في الآيةِ السَّابقة بأَنَّهم: ﴿إِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾، فقد كان بعضُهم يُسِرُّ إلى بعضِهم حديثًا.

إخفاء الأمر يدلُّ على أَنَّ لصاحبِه مقصدًا وغايةً في النَّفس، وأَمَّا الإسرارُ فيدلُّ على ما في النَّفسِ ولا يقتضي أَنْ يكونَ لغاية

إنَّ الخفاءَ أَخفى مِنَ السِّرِّ كما تقدَّم ويكونُ لِمقصدٍ أَو غاية، وأمَّا الإسرارُ فهو يدلُّ على مُطلَقِ ما يكونُ في النَّفس ممَّا لم يُعلَنْ به، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: 1]؛ فلمّا كان لهم غايةٌ ومقصدٌ في الإسرارِ سمَّاه خفاءً، وممَّا يؤيّدُ هذا أَنَّ إبراهيمَ عليه السلام لمَّا أَسكنَ ذريَّته بوادٍ غيرِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/5.

ذي زَرْعٍ، كانت نِيَّتُه وغايتُه أَنْ يُقيموا الصَّلاةَ فيه ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 37]، فلمَّا كان له غايةٌ في عملِه قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ [إبراهيم: 38].

الفرقُ بينَ السِّرِّ والخَفاءِ قد يكونُ باعتبارِ زمنِ الحالِ والاستقبالِ، أو أنَّ الخفيَةَ أخفَى من السِّرِّ

وقد يكونُ الفرقُ بينهما في الوضعِ الزَّمنيِّ بينَ الحالِ والاستقبالِ؛ فالسِّرُّ ما يكونُ في النَّفْسِ متحصَّلا ممَّا لَمْ يُعلَنْ به، والخَفاءُ ما سيكونُ في النَّفسِ ممَّا سيستأنفُ في المُستقبلِ[1]. وقد يكونُ الفرقُ بين الإسرارِ والخفيةِ هو أَنَّ الخفية هي: "مَا يَتَكَلَّمُ اللِّسَانُ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَنَحْوِهِ مِنَ الأَصْوَاتِ الَّتِي هِيَ أَخْفَى مِنْ كَلَامِ السِّرِّ"[2].

الإعلانُ والإبداء:

الفرقُ بينَ ﴿يُعۡلِنُونَ﴾ و(يُبدونَ): هو أَنَّ الإبداءَ ما كان فيه تكلُّفٌ في إظهارِ ماخَفِيَ، أَو ما يظهرُ ظهورًا بيّنا بعدَ خَفاءٍ، فيكونُ البَدْوُ في مقابلِ الخِفْيَةِ أولى، ولهذا أكثرُ ما وردت كلمةُ (يُبْدونَ) ومشتقَّاتُها في القرآنِ الكريمِ في مُقابلِ (الخِفْيَةِ) ومشتقَّاتِها، وما وردَ من الخَفاءِ في مقابلِ العلنِ قد تقدَّم سببُه، وأمَّا الإعلانُ فيُطلَقُ على ما هو ظاهرٌ ممَّا يكون مقابلًا للإسرار؛ ولهذا ورد (يُعْلِنُون) مقابلًا لِـ(يُسِرُّونَ)، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [يس: 76].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/37.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/191.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»